

تأليف الدكتور

صالح أحمد رضا

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين في الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

ظاهرة رفض السنة وعدم الاحتجاج بها

«مقدمة»

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء، والصلاة والسلام على رسول الله الذي أُرسل هادياً ومبشراً ونذيراً ، ومبيناً لمراد الله في كتابه ، وكان أسوة للمسلمين في أفعاله .

وبعد :

فإن القرآن الكريم هو الأصل الأول من أصول الشريعة الاسلامية ، التي يجب على كل مسلم أن يرجع اليه في كل أمر ، ويحكمه في كل مسألة من مسائل الحياة ، ويعمل بما ورد فيه من الأحكام الشرعية ، والأوامر الربانية . وقد كان المسلمون على هذا طيلة التاريخ الاسلامي في كل بلاده وأصقاعه ، لا يشذُّ عن ذلك أحد من المسلمين ، فإن شذَّ كان ضالاً عن السبيل القويم ، والصراط المستقيم .

والسنة النبوية هي الأصل الثاني من أصول الشريعة ، التي يفزع إليها المسلم عند الملمّات ، ويستفتيها في حكم أي عمل يريد القيام به ، وينوي أداءه ، ويسترشد بها في أعماله اليومية ، وعباداته المفروضة والمندوبة ، لأنها هي الحجة على المؤمنين ، والبيان لأوامر الحق في كتابه ، والمَظْهَر الكامل لشرائع الإسلام . وسار المسلمون على اعتبار السنة النبوية أصلاً للأحكام ، ومرجعاً للأنام ، عبر حياتهم الطويلة التي قضوها في ظل الإسلام .

ولكن بعض الناس يَدَّعون أنهم «قرآنيون» يهتدون بهدي القرآن فقط ، فيرفضون السنة النبوية ، ولا يحتجون بها ، ولا يعتبرونها أصلاً يُرجع إليه ، يزعمون أنهم يتبعون القرآن الكريم ، لأنه متواتر في الوصول إلينا نقله الجم الغفير عن مثلهم إلى رسول الله ﷺ ؛ وأما السنة فإنما وصلت عن طريق الآحاد ، وهو لا يفيد إلا الظن في الحكم .

وقد كَوَّن هؤلاء منعرجاً خطيراً في حياة الأمة الاسلامية ، وانحرافاً ضاراً للمجتمع الإسلامي ، الذي ظَلَّلَته السنة النبوية ، وشذوذاً واضحاً عن إجماع الأمة ، وضلالاً عن الصراط الحق ، والسبيل السوي ، وزعزعة لما قر في ضمير الناس من الاعتماد على سنة المصطفى ﷺ . ولهذا وجب بيان هذا المبدأ الضال ، والفكرة الشاذة ، وايضاح خطئها ، وإظهار فسادها لمن يغتر بها من المسلمين ، وليس المراد مناقشة أصحابها لأني أظنهم يعتقدون بطلان رأيهم - في قرارة نفوسهم - ، وإنما يريدون الفساد في الأرض ، واتباع غير سبيل المؤمنين .

وإني سأعرض هنا لأهمية السنة النبوية في حياة المسلم ، مبيناً مهمة رسول الله محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - في هذه الحياة ، موضحاً أن أوامر القرآن الكريم لا يمكن تطبيقها إلا بالاعتماد على السنة النبوية ، وأن كتاب الله تعالى قد حض المؤمنين في محكم آياته على اتباع السنة ، فمن كان للقرآن متبعاً ، فلا شك أنه سيقتدي بالسنة في أعماله . كما أبين مراد هؤلاء في دعواهم تلك ، وأنهم إنما يريدون هدم الاسلام في أنفسهم ، وعدم القيام بأوامره ، وإقصاء الشريعة عن التطبيق في مجتمع الناس ومعاملاتهم .

والله أرجو أن يسدد قولي ، ويوفق عملي ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مهمة الرسول ﷺ :

إن الله ـ جلت حكمته ـ لم يُخْلِ هذه الأرض من رسولٍ داعٍ إلى الحق ، وهادٍ إلى دين الله الذي أراده للناس ، ودعاهم إليه عن طريق أنبيائه ، ورسله﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيْهَا نَذِيْرٌ﴾(١). وذلك لأن الناس لو تُركوا لأنفسهم دون هداية ربانية لضلوا عن السبيل القويم ، ولتنكبوا الصراط المستقيم ، ولو استهدوا بهدي عقولهم لاختلفت أهواءهم ، وتعددت السبل التي يسيرون فيها ، ويتوجهون إليها ، كما نراه اليوم في المجتمعات التي لا تهتدي بالإسلام ، ولكي لا يبقى للناس حجة على الله أرسل لهم الرسل في كل وقت وفي كل عصر ليدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له . قال الله عز وجل : ﴿وَلَقَد بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَن اعبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾(٢) . وقال عز من قائل : ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٣). واننا لكي ندرك الحاجة الى السنة النبوية علينا أن نرجع الى كتاب الله لنعلم مهمة هذا الرجل الذي كانت السنة حياته كلها قولاً وفعلاً وخلقاً ﷺ ؛ ثم لنرى حكم القرآن بهذه السنة .

وقد ذكر الله سبحانـه مهمة رسوله ﷺ في كتابه العزيز ضمن آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلى المُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِم رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِم يَتْلوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهِمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبِيْنٍ﴾(٤).

فَيمنّ الله جل جلاله على المؤمنين بما أنعم عليهم من بعثة

---

(١) ـ سورة فاطر : آية ٢٤ .

(٢) ـ سورة النحل : آية ٣٦ .

(٣) ـ سورة النساء : آية ١٦٥.

(٤) ـ سورة آل عمران : آية ١٦٤ .

الرسول محمد ﷺ مبيناً ما كان يقوم به رسول الله ﷺ من أعمال ، وذلك :

١ ـ تلاوة القرآن : والمقصود منها هو تعليمُ كيفيةِ التلاوة من فعل رسول الله ﷺ ، حتى تكونَ تلك الكيفية مطابقةً لنزول القرآن كما أمر الله تعالى رسوله فقال : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرآنَ تَرْتِيْلاً﴾[1] .

٢ ـ تزكية الصحابة : وهذه المهمة لها جوانب متعددة ، فقد ورد في الكتاب الكريم قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهم وَتُزَكِّيْهم بِها﴾[2] .

فكان أخذُ الزكاة سبيلاً لتزكية نفوس المؤمنين من داء الشح والبخل ، ويدخل في ذلك : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جاءت آيات كثيرة فيها ، ومن ذلك وصف رسول الله ﷺ الذي جاء فيه ﴿يأْمُرهُم بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكرِ﴾[3].

ويدخل في ذلك الأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ في الأعمال والأخلاق ، إذ من كمل اقتداؤه برسول الله ﷺ فقد كملت تزكية نفسه . قال تعالى : ﴿لَقَد كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللّهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَاليومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيْراً﴾[4] .

وذلك لأن أخلاق رسول الله ﷺ صورة للأخلاق المرضية الواردة في كتاب الله عز وجل قالت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ:(كان خلقه القرآن)[5] .

---

(١) ـ سورة المزمل : آية ٤ .
(٢) ـ سورة التوبة : آية ١٠٣ .
(٣) ـ سورة الأعراف : آية ١٥٧ .
(٤) ـ سورة الأحزاب : آية ٢١ .
(٥) ـ رواه مسلم .

٣ ـ تعليم الكتاب : وهذه المهمة لا شك هي شيء آخر غير تلاوة القرآن ولذلك أوضح الله تعالى هذه المهمة في قوله سبحانه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِم وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) .

وقال جل وعز : ﴿وَما أَنْزَلنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيْهِ وَهُدى وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) .

فكان رسول الله ﷺ يفسر لهم أحكام القرآن ، ويبين لهم ما غمض عليهم ، ويحكم بينهم بحكم الله تعالى ، ويفصل لهم ما أجملته الآيات الكريمة .

كل ذلك إنما كان من البيان لكتاب الله ، وتوضيحه بسنته الكريمة للصحابة رضي الله عنهم ، ولمن جاء بعدهم من المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن البيان كذلك ما جاء في قول الله تعالى في وصف رسوله ﷺ : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِم الخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٣) .

فإحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث الذي ورد في السنة المطهرة كان بياناً لما جاء في القرآن الكريم .

٤ ـ وكانت المهمة الرابعة هي تعليم الحكمة والمقصود بالحكمة هنا في الآية الكريمة هو «السنة» باتفاق علماء الاسلام وجمهور المفسرين ، لأنها في مقابلة القرآن ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى لنساء النبي ﷺ ورضي الله عنهن : ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَى

---

(١) ـ سورة النحل : آية ٤٤ .

(٢) ـ سورة النحل : آية ٦٤ .

(٣) ـ سورة الأعراف : آية ١٥٦ .

﴿فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيْفاً خَبِيْراً﴾[1] .

فقد أمرهن بذكر ما يتلى في بيوتهن وهو أمران :

الأول : آيات الله والمقصود ما في القرآن الكريم .

الثاني : هو الحكمة ، ولا شك أنها أمر آخر غير القرآن ، ولذا عطفت على الآيات ، ولا يذكر في بيوت أمهات المؤمنين الا القرآن وسنة النبـــي ﷺ فعلم من ذلك أن من مهمة رسول الله ﷺ بنص القرآن الكريم تعليم السنة لأصحابه ، ولهذا قال : (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)[2]. يعني السنة النبوية .

ومن الآيات التي ذكرت شيئاً من المهام المنوطة برسول الله ﷺ قـول الله عز من قائل : ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدَاً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً وَدَاعِياً إلى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجَاً مُنِيْرَاً﴾[3] .

نأخذ منها المهمة الخامسة وهي :

٥ ـ الدعوة إلى الله . وهي تستلزم ايضاحاً من السنة النبوية لطرق الدعوة ، وسبلها، ومبادئها التي يجب على الداعية أن يسلكها مع الأقوام المختلفة التي يدعوها للدخول في الاسلام، وإنما تعرف هذه الوسائل من توجيهاته الكريمة التي كان يوجه بها أصحابه الدعاة الذين كان يرسلهم الى الأقوام المختلفة ، كما يتبين من الوسائل التي سلكها في دعوة قومه من قريش وغيرها ، وكذلك تعرف من الكتب والرسائل التي بعثها إلى الملوك والعظماء . إلى غير ذلك من مظان أصول الدعوة في السنة النبوية .

من هذا كله يتبين لنا أن رسول الله ﷺ وهو صاحب السنة

---

(١) ـ سورة الأحزاب : آية ٣٤.

(٢) ـ رواه الإمام أحمد في المسند ١٣١/٤، كما سيأتي .

(٣) ـ سورة الأحزاب : آية ٤٦.

التي أوضحت شريعة الله عز وجل، فكانت سنته بمثابة المذكرة الايضاحية للدستور الخالد «كتاب الله عز وجل» .

أهمية السنة لفهم القرآن :

إن القرآن الكريم الذي هو كلام الله في مبناه وفي معناه يظهر من سياق آياته أنه أريد بالقرآن أن تكون السنة النبوية سائرةً معه تفسر معانيه وتوضح مبانيه ، وأريد بآيات الكتاب المبين أن تسير مع هداية الرسول ﷺ ، وذلك لأن المهمة العظمى لرسول الله ﷺ هي : بيان ما أنزل الله تعالى في كتابه العزيز من آيات بينات ، وتشريع محكم ، فلا شك أن السنة النبوية لها الأهمية العظمى في فهمنا للكتاب العزيز في آياته وأحكامه ، حتى إذا أراد المرء منا أن يتحقق من فهمه للقرآن الكريم كان عليه أن يعرف ما ورد في السنة المطهرة من بيان لمعانيه ، أو تفسير لمبانيه ، أو تطبيق لأحكامه ، ومن أولى الأمثلة في ذلك العبادات المفروضة التي أمرنا بها في كتاب الله جل وعز، وعلى رأس ذلك كله «الصلاة» ، وقد شهد الزمان أناساً يقولون : إنهم يصلون لله بقلوبهم ، فلا يقومون بالصلاة كما يقوم بها المسلمون ، ويتأولون الركوع والسجود اللذين وردا في كتاب الله سبحانه بالإخبات والاذعان بالقلب .

لقد اتجه الواحد من هؤلاء الى التأويل الفاسد الذي يرضي هواه عندما كان متعباً لعقله الضال الذي أورده تلك الموارد الذميمة ، فلننظر الى هذه العبادة ، وكيف ورد الأمر بها في كتاب الله جل وعز وكيف كان البيان لها في سنة المصطفى ﷺ . قال الله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فكيف تكون إقامة الصلاة ؟ والصلاة في اللغة هي الدعاء ؟ !

وقال جل وعز : ﴿وَارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ فمتى يكون الركوع ؟

ومتى يكون السجود ؟ أيهما يسبق الآخر ؟ والواو في اللغة لا تفيد الترتيب ؟ وكيف يكون الركوع ؟ والركوع في اللغة مطلق الانحناء ؟ وكيف يكون السجود ؟ وأصله التطامن والتذلل ؟؟ لم يبين القرآن الكريم هذا كله .

وقال تعالى : ﴿فَاقرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ﴾[1] . وقد قال الامام أحمد رحمه الله تعالى : «أجمع العلماء على أن هذه الآية نزلت في الصلاة» ، فمتى يقرأ الانسان القرآن في الصلاة ؟ وكم يقرأ ؟ وماذا يقرأ ؟ . . كل هذا لم يفصل في كتاب الله عز وجل وجاء رسول الله ﷺ فقال : (صلوا كما رأيتموني أصلي)[2] فكانت صلاته مثالاً يحتذى للصحابة الكرام رضوان الله عليهم عملوا بها وعَلَّموها حتى وصلتنا سليمة بفضل الله جل وعز وقال رسول الله ﷺ عن الصلاة (تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم)[3]. فعرفنا أن الصلاة تبتدىء بتكبيرة الإحرام ، وتنتهي بالتسليم وعرفنا من فعله ﷺ أنه كان يبتدؤها بدعاء الاستفتاح ، كما بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أنه : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[4]. فأوضح أن المؤمن عليه أن يقرأ الفاتحة وبعد دعاء الاستفتاح ، ثم أنه يقرأ ما تيسر له من كتاب الله عز وجل . وقد رأى رسول الله ﷺ صحابياً لا يحسن الصلاة ، فقال له : اذهب فصل فإنك لم تصل ، وفي المرة الثالثة قال له الصحابي : علمني فوالله لا أحسن غيرها ، فقال له رسول الله ﷺ : (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع

(١)ـ سورة المزمل : آية ٢٠ .
(٢)ـ رواه البخاري في كتاب الأذان ـ ورواه الدارمي وأحمد .
(٣)ـ رواه أبو داود ـ كتاب الطهارة ـ والترمذي وابن ماجه والدارمي وأحمد .
(٤)ـ رواه البخاري ومسلم .

حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)[1] .

هذا غيض من فيض مما ورد في السنة النبوية من أمور الصلاة ، فكيف بنا إذا أردنا أن نستعرض ما ورد فيها من بيان لمقدمات الصلاة وشرائطها وأركانها للزم ذلك كتاباً كبيراً . أما اذا استعرضنا ما ورد في السنة من بيان للعبادات الأخرى كالزكاة مثلا التي أمرنا الله تعالى في كتابه بإيتائها في آيات كثيرة مقرونة بإقامة الصلاة ، ولكن في أي مال تؤدى الزكاة ؟ وما هي أنصباء الزكاة ؟ لم يذكر القرآن شيئاً من ذلك ، وتكفلت السنة الكريمة في إيضاح الأمور المتعلقة بالزكاة ، فلولا السنة لما استطاع المسلم أن يعرف الواجب الذي عليه أن يقوم به بالنسبة لما له ، وكم يخرج منه ، ومتى يخرج، فكيف للمرء أن يفهم ما ورد في القرآن الكريم من الأمر بإيتاء الزكاة بدون أن يعرف ما قاله رسول الله ﷺ فيها .

وهكذا في كل أمر من أمور الشريعة الكريمة من حج ، وصيام ، وجهاد ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر . . وطاعة الوالدين ، والذكر ، والقيام، والدعاء ، والاستغفار ، وطهارة ونجاسة . . وصيد وذبائح . . وغير ذلك من الأمور التعبدية التي أمرنا بها في كتاب الله العزيز .

وليس ذلك فقط في مجال العبادات التي تُكوّن أركان الدين الأساسية التي تقوم عليها ، بل هي كذلك تشمل الحدود التي هي أمور معينة لا مجال للعقل فيها ، مع ذلك فإن القارىء لكتاب الله تعالى لا يستطيع أن يعرف كيف ينفذ هذا الحد ، فالله سبحانه وتعالى قد أمر المؤمنين بقطع يد السارق في قوله تعالى : ﴿والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

(١)ـ أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي وأحمد .

فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيْمٌ﴾[١]. فما هو حد السرقة ونصابها الذي يعتبر من وصلت سرقته إليه سارقاً ؟ وكيف نقطع اليد؟ واليد تطلق على جميع اليد من رؤوس الأصابع الى الكتف ، فهل نقطع من الرسغ ؟ أم من الكتف ؟ كل هذا احتمالات للنص القرآني، والسنة هي التي حددت القطع من الرسغ ، وإلا لما عرفت كيفية إقامة الحد .

وقل مثل ذلك في الجلد ، وأكثر من ذلك في الرجم ، أحكام لم تعرف الا من طريق النبوة المتلقاة من الله تعالى ، فكيف لا نقبلها ونضيعها ؟ ! .

وأما المعاملات فحدث ولا حرج ، فقد قال الله تعالى : ﴿وأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾[٢]. وكلمة البيع تطلق على كل تعامل بين شخصين يدفع أحدهما ثمناً ويأخذ مقابله البدل المراد. ولكن أليس في البيع أنواع لا يجوز للمسلم أن يتعاطاها ؟ وأن يعامل الناس على أساسها ؟ ومن أين للمسلمين أن يتبينوا تلك الأنواع من البيوع المحظورة ؟ ! والنص الوارد في كتاب الله عز وجل عام يشمل كل أنواع البيوع ، إنه رسول الله الذي أرسل لبيان كتاب الله ، ولتفصيل المجمل من آياته ، هو المبين لذلك كله . ولهذا نجد في السنة المطهرة أنه ﷺ أجاز بيوعاً كانت موجودة في زمانه ، ومنع من بيوع ، وحد حدود البيوع أخرى ، ومن ذلك قوله : (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)[٣]. كما نهى عن ثمن الكلب ، وزجر عن ثمن السنور ، ونهى عن بيع فضل الماء ، ونهى

---

(١)ـ سورة المائدة : آية ٣٨.

(٢)ـ سورة البقرة : آية ٢٧٦.

(٣)ـ متفق عليه .

عن بيع حبل الحبلة، ونهى عن بيع الحصاةوعن بيع الغرر، ونهى عن بيعتين في بيعة الى غير ذلك من البيوع المنهي عنه . . كل ذلك بيان لقوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾فهل نترك بيان رسول الله ﷺ الذي أرسله الله تعالى لبيان شرعه ، ونتبع عقولاً قد تضل عن السبيل ، وتخطىء الطريق القويم ؟ ! هذا لعمر الحق هو الضلال المبين والفساد في الدين .

هذا في البيع ، فإذا انتقلنا الى الشطر الآخر من الآية الكريمة المتعلق بالربا﴿وَحَرَّمَ الرِّبا﴾فتأتي الأسئلة حول ذلك : ما هو الربا ؟ وفي أي الأموال يجري ، وما هي أنواعه ؟ !

صحيح أن الله تعالى قال في كتابه الكريم : ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ﴾[1] . مبيناً أن الحكم في موضوع الدين أن يأخذ الدائن رأس ماله دون زيادة أو نقصان ليبتعد عن الربا ، ولكن هناك أموراً قد تدخل في الربا يغفل عنها المسلم ، وبيان ذلك للرسول المصطفى ﷺ ، فقد بين أن الربا نوعان : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، وكلاهما محرم ، كما أوضح أن من شارك في مسألة الربا بأي نوع من أنواع المشاركة فقد اشترك مع المرابي في الاثم ، والطرد من رحمة الله كالشاهد والكاتب[2] .

إلى غير ذلك مما أوضحه رسول الله ﷺ في أمر الربا مما يوضح السبيل أمام المسلم ، ولا يجعله يتعثر في دروب الحياة المالية المتشعبة ، وبخاصة في هذا الزمان .

فكيف بنا إذا انتقلنا إلى القصاص وكيفيته ، وإلى المحرمات من النساء ، وحجاب المرأة وكيف يجب أن يكون ، والمحرمات من

---

(١)ـ سورة البقرة : آية ٢٧٨ .

(٢)ـ عند البخاري ومسلم.

الأطعمة ، والأشربة ، والطلاق ، والعتاق ، والرجعة ، والرضاع . . . وغير ذلك من أبواب الفقه وشؤون الحياة التي يتعرض لها المسلم في تعامله مع اخوانه ، فإنه لا يستطاع إدراك الأحكام الشرعية من كتاب الله وحده ، بل لابد لنا من الرجوع إلى من فَصَّل مجمله ، وفَسَّر نصه ، وبَيَّن مُبْهَمه ، وخَصَّص عامه ، وقيد مطلقه. إنه رسول الله المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى الذي قال : (ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه)[1] .

فالسنة النبوية بالنسبة للأحكام أصل في التشريع إذا حكمت بشيء فهو حكم رباني لا يجوز لأحد أن يرده ، ولا أن يناقش فيه إذا ثبت وروده عن رسول الله ﷺ بل عليه أن يتبعه ، ويعمل بما يدل عليه ، ويهتدي بهديه ، ويسترشد بما وجه الناس اليه ، لأنه رسول من عند الله يُبَلغ شرعه ، ويطبقه في الأمة ، يطبقه على نفسه ، وعلى أسرته ، في قوله ، وعمله ، فلا يخرج شيء من ذلك عن شرع الله تعالى ، ولو خرج شيء من القول أو الفعل أو التقرير عن حكم الله تعالى ، أو خالفه ، فإن الله جل وعز سينبه رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم ويدله على الصواب من الفعل كما حدث ذلك في الأنفال يوم بدر ، وفي تقريب الكبراء من قريش ، وابعاد الضعفاء ، والله يقول في كتابه العزيز : ﴿وَلَو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيْلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِيْنِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾[2]. فلو كان محمد ﷺ يزيد في الرسالة أو ينقص منها ، أو كان يقول شيئاً من عنده ، وينسبه الى الله لعاجله ربه الذي أرسله بالعقوبة ، والمقصود في ذلك: بل هو صادق بار راشد ، والله جل وعز مقرر له ما يبلغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات فأقواله هدي كريم ،

---

(١) ـ رواه الإمام أحمد.

(٢) ـ سورة الحاقة : آية ٤٤ ـ ٤٦ .

وأفعاله تشريع حكيم ، وتقريراته حق سليم من تشريع الرب جل وعز الذي شرعه للناس ليتبعوه ، ويقتدوا به .

فحياة المصطفى ﷺ كانت تمثيلاً حياً وتفسيراً حقيقياً لما جاء في القرآن الكريم ، ولا يمكننا أن نتبع القرآن الكريم حقاً وصدقاً بأكثر من أن نتبع الرجل الذي جاء بالقرآن من عند الله ، وأوحى له به .

مكانة السنة في القرآن الكريم :

وإذا كان الذين يرفضون قبول السنة واتباع هديها يتذرعون بأنهم قوم قرآنيون ، يتبعون الكتاب المنزل من عند الله تعالى ، لأنه متواتر عن النبي ﷺ لا يدخله الشك ولا الوهم ، ولا الريبة في شيء من آياته ، بل في حرف من حروفه فلنستفت القرآن الكريم الذي يعتبرونه حجة وحده ، ماذا يقول هذا الكتاب عن الرسول الذي جاء به ، وأرسل إليه ، وعن أقواله التي ينطق بها ، وعن أفعاله التي يقوم بها ، فإذا كان يأمرنا بطاعته فعلينا جميعاً اتباع ذلك .

وقد هيأ الله تعالى للأمة الاسلامية قوماً يعتنون بنقل السنة بطريق صحيح لتصل إلينا ، ولنقتدي بها ، فأمر الله تعالى الأمة الإسلامية باتباع النبي الأمي ﷺ يوجب عليها أن تعتني بنقل سنته ، والمحافظة عليها ، وحراستها من كل معتد ظالم ، أو غافل جهول ، وذلك بتوفيق من الله لهذه الأمة وهذا مستلزم لقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١] . فحفظ الكتاب مستلزم لحفظ السنة اذ تقل الفائدة في حفظ النص دون حفظ البيان ، ولا يتم المراد من الكتاب الكريم الا بنقل السنة معه موضحة لذلك ، ولهذا كانت السنة المطهرة محفوظة بحفظ الله تعالى لها ، وقد رأينا عبر التاريخ الاسلامي منذ فجر الاسلام حتى عصرنا الحاضر علماء أجلاء ،

---

(١)- سورة الحجر : آية ٩.

وجهابذة فضلاء يحفظون للأمة حديث رسولها ﷺ نقياً صافياً دون أدنى شائبة تشوبه ، مبعدين عنه كل زيغ أراد مفتر إلحاقه بالسنة وإدراجه ضمن نصوصها ، مبينين خطأ المخطئين ، وغفلة الغافلين ، ووهن الضعفاء والمتروكين .

وهذه الجهود التي بذلها علماء الإسلام في سبيل الحفاظ على السنة ، واتباعها وفي استنباط الأحكام منها على مر العصور ، وكر الدهور ، إنما كانت عملاً بما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات تأمر المسلمين حيث وجدوا وأنى كانوا في كل عهد وفي كل زمان باتباع النبي ﷺ وطاعته ما داموا يستظلون بظلال الشريعة الوارفة ، ويؤمنون بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

لهذا كله كان لابد من استعراض ما ورد في القرآن من آيات توضح لنا السبيل في موضوع السنة واتباعها لتعلم الحق من الباطل ، والهدى من الضلالة. وفي أكثر من أربعين آية أمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نذكر منها الآيات التالية :

قال سبحانه : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(١) .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعة في أمره ونهيه ، فقد أطاع الله تعالى ، ومن عصاه فيهما ، فقد عصى الله تبارك وتعالى ، وما ذاك إلا لأنه ﴿لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُو إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢). واذا كان النص بالنسبة للصحابة الذين يتلقون الأمر من المصطفى ﷺ مشافهة ، فهو يشمل كذلك الأصحاب الذين يتلقون

---

(١)ـ سورة النساء : آية ٨٠.

(٢)ـ سورة النجم : آية ٢ ، ٣.

أوامره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ممن تلقاه عنه لقوله: (فليبلغ الشاهد الغائب[1]) كما يدخل فيه كذلك غير الأصحاب ممن جاء بعدهم من المسلمين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لعموم النص .

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2] .

وهذه الآيات جاءت في سياق أوصاف المنافقين الذين لا يقبلون على رسول الله ﷺ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه الا اذا كان لهم الحق فبين الله تعالى أن المؤمن الحق اذا دعي الى الله ـ أي الى كتاب الله تعالى ، والى الرسول في حياته ﷺ ليحكم في الخلاف الواقع وإلى سنته بعد وفاته لِيُحَكِّمها فيما يجري بينه وبين غيره من الشقاق والخصومة أن يقول بدفع ايمانه : سمعت لحكم القرآن، وأطعت ما فيه ، وسمعت لحكم الرسول ﷺ الذي ورد في سنته ، وأنا مطيع لما ورد فيها ، فأخبر الرب عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله أنهم هم المفلحون في الدار الدنيا باصابتهم للصواب من الامر ولسيرهم على الشريعة الحقة ، وهم المفلحون في الآخرة بنيل المطلوب ، والسلامة من الموهوب .

ثم بين الحق سبحانه أن طريق الفوز هو طاعة الله وطاعة رسوله فيما جاء الأمر به ، وترك ما جاء من النهي عنه ، وطاعة الله إنما تكون بالتزام كتابه والسير وفق أحكامه ، وطاعة رسوله ﷺ تكون بالتزام سنته ، واتباع هديه .

---

(١)ـ رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد.

(٢)ـ سورة النور : آية ٥١ ، ٥٢.

ويقول جل وعز: ﴿قُلْ أَطِيْعُوا اللَّهَ وأَطِيْعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَولَّوا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيْعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبِيْنُ﴾(١).

وفي هذه الآية الكريمة يأمر الرب بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك كما بينا سابقاً . إنما يكون باتباع الكتاب والسنة ثم يبين لهـم مهمة رسوله إن تولى عنه الناس وتركوا ما جاءهم به بأنه عليه إبلاع الرسالة وأداء الأمانة ، وليس عليه حملهم على الطاعة ، وأما الناس فعليهم مسؤولية قبول دعوته وتعظيمها ، والقيام بمقتضاها ، مقرراً أن الهداية للطرق المستقيم لا تكون إلا بطاعتهﷺ .

وقال الرب سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيْناً﴾ (٢) . عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خطب النبـي ﷺ على «جليبيب» امرأة من الأنصار الى أبيها ، فقال: حتى أستأمر أمها ، فقال ﷺ : نعم إذاً . قال : فانطلق الرجل الى امرأته فذكر لها ، فقالت : لاها الله ، إذا ما وجد رسول الله ﷺ الا جُليبيبا ، وقد منعناها من فلان وفلان . قال : والجارية في سترها تسمع ، قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمـره ، إن كان قد رضيه لكم ، فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبويها وقالا : صدقت . فذهب أبوها الى رسول الله ـ ﷺ فقـال : إن كنت قد رضيته ، فقد رضيناه ، قـال ﷺ : (فإني قد رضيتـه) قال : فزوجها ، ثم فزع أهل المدينة ، فركب جليبيب ، فوجدوه قد قتل ،

---

(١)ـ سورة النور : آية ٥٤ .

(٢) ـ سورة الأحزاب : آية ٣٦.

وحوله ناس من المشركين قد قتلهم[١] .

قال الحافظ ابن عبد البر : إن الجارية لما قالت في خدرها «أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟» . نزلت هذه الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢]

هذا في أخص خصائص الانسان وهو الزواج، فكيف بالأمور الأخرى ؟ ! والآية عامة في كل أمر اذا حكم فيه رب العزة ، أو حكم فيه رسوله ﷺ بشيء ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار له مع حكم الله أو حكم رسوله ، ولا رأي ولا قول ، وإنما يعرف حكم الله تعالى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وحكم رسول الله ﷺ من سنته ، ثم شدد الله تعالى في حكمه ، وأبان أن الذي يقوم بعمل ، أو يقول قولاً ، أو يعطي رأياً فيه معصية لله ، ومعصية لرسوله فقد ضل ضلالاً واضحاً عن سبيل الحق .

وقال عز من قائل : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكِّمُوكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْماً﴾[٣] . يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يجعل الرسول ﷺ حكَمــاً عدلاً في جميع الأمور ، فما حَكَمَ به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، فاذا حَكَّموه يذعنوا لحكمه ، وتسلم له نفوسهم تسليماً كاملاً في الظاهر بالانقياد ، وفي الباطن بالاستسلام دون اعتراض أو ممانعة كما ورد في الحديث :

(١) ـ رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) ـ سورة الأحزاب : آية ٣٦.

(٣) ـ سورة النساء : آية ٦٥.

(والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) [١] .

قال الله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ﴾[٢] . أي مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمركم بخير ، وإنما ينهى عن شر .

وقد روي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : (لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل قال : فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها «أم يعقوب» فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالىٰ؟ فقالت إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه ، فقد وجدتيه ، أما قرأت ﴿وَمَا آتاكُمُ الْرَّسُولُ فخذُوُهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهوا﴾ : قالت : بلى . قال : فإن رسول الله نهى عنه)[٣] . فهذا الصحابي الجليل بين لهذه المرأة أنه يعبر في أقواله بهدي القرآن ولا يخرج عنه ، والقرآن الكريم هو الذي أمر باتباع المصطفى ﷺ والاهتداء بهديه ، فما أمر به رسول الله ﷺ فهو أمر من عند الله ، وما نهى عنه فهو منهي عنه عند الله جل وعلا .. وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَاليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[٤]

---

(١)ـ حديث حسن

(٢) ـ سورة الحشر : آية ٧.

(٣) ـ رواه أحمد والشيخان.

(٤) ـ سورة الأحزاب : آية ٢١.

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ، وكيف يمكن للانسان المسلم أن يتأسى به إذا لم يطلع على السنة المطهرة ، ويتعرف منها على صفات القدوة التي أمره الله تعالى أن يقتدي بها ويتبع خطاها، ويسير وفق هديها في حياته كلها .

وقال جل من قائل : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرِ لَكُم ذُنُوبَكُمْ﴾[1] . ميزان لمحبة الله تعالى ، ومقياس للمحبة التي يجب أن تكون في قلب كل مؤمن لما يعلمه من النعم التي يغدقها عليه ربه في حياته ، هذه المحبة لا تكمل الا باتباع المصطفى ﷺ الذي جعله الله تعالى قدوة للناس ليتبعوا أمره ، وينطلقوا معه ، فمن اتبعه الاتباع الكامل حظي من الله جل وعز بالمحبة التامة ، بالاضافة الى مغفرة الذنوب ، إنه المقياس الحقيقي الذي يجب على المؤمن أن يقيس به محبته لله تعالى ، ولا يتم له ذلك دون إقبال على السنة والاغتراف من بحرها الرائق .

وقال تعالى : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ﴾[2] .

قال العلماء : معناه الى الكتاب الكريم ، والى الرسول ﷺ في حال حياته والى سنته بعدوفاته ، والتنازع حاصل بين الناس في كل وقت، وكل عصر لا ينتهي إلا بالرجوع الى كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ اذا كان الناس يؤمنون الايمان الكامل بأن هذا الدين دين أرسله الله تعالى على لسان نبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو دين خالد سيبقى إلى آخر الزمان يحكم في أمور الناس .

---

(١) ـ سورة آل عمران : آية ٣١.

(٢) ـ سورة النساء : آية ٥٩.

وقال سبحانه : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِيْنَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيْبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوَ يُصِيْبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾(١) .

فليحذر وليخشى من خالف أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله الذي سار فيه ومنهجه الذي رسمه ، وسنته التي أوضحها ، وشريعته التي أعلاها، فليحذر أولئك من أن تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم الله بعذاب أليم في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك ، وقد قال رسول الله ﷺ : (مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ، قال : فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقحمون فيها)(٢).

نجد في كتاب الله قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ صِراطِ اللَّهِ﴾(٣) .

فالرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عندما يبين الطريق الحق الذي يجب على الناس اتباعه في كلامه الذي ينطق به ، وفي فعله الذي يقوم به ، وفي إقراره لأحد من الصحابة على عمل ، فإنما يصدر عن هداية الله تعالى له ويكون من اتبعه متبعاً لصراط الله المستقيم .

أما اذا أبينا على الرسول الكريم ﷺ ما جاءنا من الهدى ، أو

---

(١) ـ سورة النور : آية ٦٣.

(٢) ـ أخرجه أحمد والبخاري : ك الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ك الأنبياء باب ووهبنا لداود سليمان ، ك الرقاق باب الانتهاء عن المعاصي . ومسلم : الحج باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧)، ك الفضائل باب شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤).

(٣) ـ سورة الشورى : آية ٥٢.

رفضنا بعض السنة التي جاءنا بها فكأننا في الحقيقة نرفض رحمة الله تعالى ، لأن الله جل وعز قال عن نبيه ﷺ ﴿ وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ﴾[١]. أونبخس هذه الرحمة المهداة حقها من التكريم والاجلال .

ما جاء في السنة عن رفض السنة :

ورسول الله ﷺ والمؤيد من الله جل وعز في كل أمر يقدم عليه وفي كل قول ينطق به ، قد أنبأنا في بعض أقواله الكريمة من أن قوماً من أهل الكسل الذين فقدت همتهم عن طلب العلم ، والسعي إليه وبذل الجهد في سبيله سيكون لهم مثل هذا الموقف الذي يقفه أولئك الذين يرفضون السنة ، فلا يقبلونها ولا يحتكمون اليها ، ولهم في ذلك حجج واهية ، وأدلة لا تقف أمام قواعد النقد الصحيح ، ومنطق العقل الصريح .

عن أبي رافع - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (لاأُلْفَينَّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به ، أو نهيت عنه فيقول : لا أدري ، ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه)[٢] .

وعن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ قال : (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه[٣] ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما

---

(١) - سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٢) - رواه الإمام الشافعي في الرسالة/ ٢٩٥/ وإسناده صحيح ، ورواه الإمام أحمد في المسند ٦ : ٥٨ ، ورواه أبو داود : كتاب السنة باب في لزوم السنة رقم ٤٦٠٥ ، ورواه الترمذي : كتاب العلم باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ وقال حديث حسن صحيح رقم ٢٦٦٥ ورواه ابن ماجه في المقدمة رقم (١٣)، ورواه البيهقي وصححه الحاكم ١/ ١٠٨ - ١٠٩/ ورواه الدارمي في المقدمة ١١٧/١ حديث رقم ٥٩٢ .

(٣)- عن ابن حبان «وما يعدله».

وجدتم فيه من حرام فحرموه)[1] «زاد ابن حبان ألا وإنه ليس كذلك» .

وعن أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (لا أعرفن الرجل يأتيه الأمر من أمري ، إمّا أمرت به وإما نهيت عنه فيقول ما ندري ما هذا ، عندنا كتاب الله ليس هذا فيه)[2] .

وانظر إلى وصف رسول الله ﷺ لرافضي السنة ، فقد وصفهم بالشبع والجلوس على الأرائك ، وهي صفة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ، وأقبلوا على الملذات ، وقعدوا عن طلب العلم ، ولم يبذلوا فيه أي جهد ، ولهذا لا يستغرب منهم أن يقولوا مثل هذا القول ويترفعوا عن قبول السُنة والاحتجاج بها ، ولو أنهم بذلوا شيئاً من الجهد ، واطلعوا على العلم ، وفقهوا كتاب الله تعالى ، لما تكلموا بمثل ما نطقوا به ، بل علموا أن أمر الله في كتابه يوجب طاعة رسوله ، واتباع سنته . فأخبر رسول الله ﷺ بهذا الخبر عما يكون بعده من رد المبتدعة حديثه ، وقد وجد تصديق ذلك فيما بعده ، كلما جاء عصر ظهر للناس ناعق يقول بمثل هذا الرأي الأخرق الذي لا ثبات له .

وقد وردت أحاديث تبين أن الكتاب والسنة لا يفترقان ، ولا يختلفان . عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (اني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبداً : كتاب الله

---

(١) ـ رواه الإمام أحمد في المسند ٤/١٣٠ ـ ١٣١/ والدارمي في سننه ١/١٤٤/ وأبو داود في كتاب السنة رقم (٤٦٠٤) ورواه الترمذي كتاب العلم رقم (٢٦٦٠) وحسنه ورواه ابن ماجه في المقدمة رقم (١٢) والحاكم ١/١٠٩/ وابن حبان رقم /١١/ .

(٢) ـ رواه الشافعي في الرسالة رقم (٢٩٥ ـ ٦٢٢ ـ ١١٠٦) بتحقيق شاكر وهو رقم ٣١ و٣٢ و٣٣ في ترتيب مسند الشافعي ، ورواه أبو داود رقم (٤٦٠٥) كتاب السنة عن أحمد بن حنبل ورواه الترمذي ٣/ ٣٧٤ / وابن ماجه ١/٦ والحاكم ١/١٠٨ ـ ١٠٩ وابن عبد البر في جامع بيان العلم ٢/١٨٩ .

وسنتي ، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[١] .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع ، فقال : (يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله ، وسنتي)[٢] .

وعن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا ، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله . كأنها موعظة مودع فماذا تعهد الينا ؟ قال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة)[٣] .

ولولا ثبوت الحجة بالسنة النبوية المطهرة لما قال ﷺ في خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع)[٤] . وقوله ﷺ في الحديث (نضر الله امرء أسمع منا حديثاً فأداه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع)[٥] .

---

(١) ـ أخرجه الحاكم في المستدرك، والبيهقي .

(٢) ـ أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي .

(٣) ـ أخرجه أبو داود رقم ٤٦٠٧ عن أحمد بن حنبل ، وابن ماجه ١/ ١٠ ـ ١١/ والحاكم في مستدركه ١/ ٩٥ ـ ١٩٧ /وصححه هو والذهبي وأخرجه البيهقي وأحمد في مسنده رقم (١٧٢١٢) والترمذي ٣/ ٣٢٨/ وقال حسن صحيح.

(٤) ـ متفق عليه .

(٥) ـ رواه البخاري .

قال الامام الشافعي : فلما ندبه رسول الله ﷺ الى استماع مقالته وحفظها وأدائها ؛ دل على أنه لا يأمر أن يؤدى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى اليه ؛ لأنه إنما يؤدى عنه حلال يؤتى ، وحرام يجتنب ، وحد يقام ، ومال يؤخذ ويعطى ، ونصيحة في دين ودنيا [1] .

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فَصَبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني ، فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني ، وكذب بما جئت به من الحق)[2] .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأْدُبة ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي ، دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يُجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة .

فقالوا : أولوها له يفقهها ، قال بعضهم : إنه نائم ، وقال

---

(١) ـ الرسالة للشافعي /٥٥/ .

(٢) ـ رواه البخاري كتاب الاعتصام. باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، وكتاب الرقاق . باب الانتهاء عن المعاصي ، ورواه مسلم : كتاب الفضائل باب شفقته ﷺ على أمته رقم (٢٢٨٣) وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١/٣/ ط شاكر .

بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار : الجنة ، والداعي : محمد ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس)(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا الموضوع ، ونكتفي بما دلت عليه هذه الأحاديث من جوب اتباع السنة المطهرة ، وأن ذلك من أمر الله عز وجل وليست من اختراع رسول الله ﷺ من قبل نفسه .

من حجج الرافضين للسنة :

وقد احتج هؤلاء ببعض الحجج زيادة عن قولهم بأنهم يتبعون القرآن وقد أجبنا عن ذلك بأن المتبع لكتاب الله يجب عليه أن يتبع السنة لما ورد في كتاب الله من الآيات الواضحات بايجاب ذلك .

ومن حججهم أنهم قالوا :
قال الله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(٢) .
وقال سبحانه : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(٣) .

فيقولون : اذا كان القرآن تبياناً لكل شيء، وما فرط الله فيه من شيء ، فإن الأحكام هي احق الأشياء بالتبيين ، وعدم التفريط فيها ، وعليه فلاحاجة بناالى دليل علىٰ الأحكام غير القرآن ، ولا مساغ للعدول عنه إلى غيره .

فيجاب عن ذلك بما سبق بيانه بأن القرآن الكريم الذي بين كل شيء أوضح أن السنة حجة يجب اتباعها في كثير من الآيات ، وأن ما

---

(١)- رواه الإمام البخاري : كتاب الاعتصام . باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .
(٢)- سورة الأنعام : آية ٣٨ .
(٣)- سورة النحل : آية ٨٩.

حرم رسول الله ﷺ من شيء ، وما شرعه من امر ؛ إنما هو ما حرمه الله تعالى وشرعه ، ولا حاجة الى ايراد الآيات الدالة على ذلك .

وكون القرآن الكريم تبياناً لكل شيء فذلك :

- بمبادئه التشريعية العامة التي قررها ، إلى جانب القليل من أحكامه التفصيلية .

- وبطرقه التي أرشد اليها لمعرفة حكم ما لم ينص عليه في القرآن بالتفصيل ، ومن جملة ما فيه ، وما أرشد اليه هو وجوب اتباع الرسول - كما ذكرت سابقاً - والرجوع إلى سنته فيما لا نص للقرآن فيه ، والقرآن بهذا التفسير تبيان لكل شيء .

ومن هنا كانت أحكام الشريعة من كتاب وسنة وما يلحق بهما ويتفرع عنهما من جماع وقياس أحكاماً من كتاب الله تعالى إما نصاً وإما دلالة فلا منافاة بين حجية السنة وبين أن القرآن جاء تبياناً لكل شيء (١) .

قال الشافعي: «فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله سننه بفرض الله طاعة رسوله على خلقه وأن ينتهوا الى حكمه ، ومن قَبِل عن رسول الله فعن الله قبل لما افترض الله من طاعته ، فيجمع القبول لما في كتاب الله ولسنة رسول الله القبول لكل واحد منهما عن الله ، وإن تفرقت فروع الأسباب التي قبلت بها عنهما»(٢) .

واحتجوا كذلك على أن الرسول ﷺ اتخذ الكاتبين من أصحابه لكتابة القرآن الكريم ، ولكنه لم يشر على أحد منهم بكتابة السنة بل نهى عن كتابتها ، وقال كما ورد في صحيح مسلم (من كتب

---

(١) - السنة ومكانتها في التشريع /١٥٥/.

(٢) - الرسالة ٣٢ .

عني غير القرآن فليمحه)[1]. يقولون : فهذا دليل على أن السنة ليست قانوناً عاماً يجب تبليغه للمسلمين للقرآن اذ لو كانت كذلك لأمر الرسول بكتابتها كما أمر بكتابته .

والإجابة عن ذلك من وجوه :

١ ـ قلة عدد الذين كانوا يعرفون الكتابة من العرب ؛ وذلك لأميتهم التي شهد بها القرآن الكريم في عدد من الآيات ، فلم يكن من المعقول الا أن يتوافر العدد الموجود ممن يجيد الكتابة على كتابة القرآن وحده دون الاهتمام بأمر آخر غيره ؛ وذلك لأنه الأصل الأول من أصول الشريعة الذي جاء تبياناً لكل شيء والمعجزة الباقية على الزمان .

٢ ـ أن رسول الله ﷺ قد عاش بين الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم مدة طويلة من الزمن تمتد ثلاثا وعشرين سنة عن عمر الدعوة ، فكانت السنة تتمثل خلال هذه الفترة كلها بكل كلمة نطق بها رسول الله ﷺ في المنزل مع أهله أو مع أحد من المؤمنين ، أو من الكافرين في شؤون الدعوة أو غيرها كما يتمثل ذلك في أفعاله التي كان يقوم بها أنى مضى ، وحيث سار ، وكتابة مثل هذا كله من العسر بمكان اذ يحتاج الى تفرغ كامل من الصحابة الذين يعرفون الكتابة ليكونوا دائماً على استعداد للكتابة ، الألواح بين أيديهم، والأقلام بين أصابعهم لتسجيل ما يرونه وما يسمعونه ، وقد كان ذلك متعذراً في الفترة المكية الأولى لقلة عدد الكتاب الذين كانوا يقومون بكتابة القرآن الكريم ، كما كانت الكتابة متعذرة في الفترة المدنية الأولى لقلة

---

(١)ـ رواه الإمام أحمد . المسند ١/١٧١ ، والإمام مسلم كتاب الزهد والرقائق باب التثبيت في الحديث رقم (٣٠٠٤) .

عدد الكتبة أيضاً ، ولكثرة الحروب والغزوات والسرايا التي كان يمضي إليها الأصحاب الكرام .

٣ ـ أما اتخاذ كاتبين للقرآن فإنما كان حتى لا يُختلف فيه لأنه المصدر التشريعي الأساسي ، ولهذا السبب نفسه نهى عن كتابة السنة ؛ وذلك حتى لا يختلط شيء من السنة الموجزة الحكيمة بالقرآن الكريم مما لو حدث لكان خطراً على كتاب الله بفتح باب الشك فيه لأعداء الاسلام مما يتخذونه قنطرة ينفذون منها الى المسلمين لحملهم على التحلل من أحكامه .

٤ ـ ولهذا لما كان رسول الله ﷺ يأمن من اختلاط الكتاب بالسنة عند بعض الصحابة ، وفي بعض المواطن كان يأذن بالكتابة كما قال عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ :

(كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه ، وقال : اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق)[١].

وكانت كتابة عبد الله معروفة لدى الصحابة ، فقد قال أبو هريرة :(ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب)[٢] .

وروي عن أبي هريرة أنه قال : (ما كان أحد أعلم بحديث رسول

---

(١) ـ سنن الدارمي ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦/ وتقييد العلم للخطيب البغدادي بطرق كثيرة/ ٨٣٠٧٤/ وجامع بيان العلم ١/ ٧١ ، وأحمد ١٦٢/٢ و ١٩٢/وأبو داود كتاب العلم ١٨/٣ حديث (٣٦٤٦).

(٢) ـ صحيح البخاري كتاب العلم، باب كتابة العلم .

الله ﷺ مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب بيده ويعيه بقلبه ، وكنت أعيه بقلبي ولا أكتب بيدي ، واستأذن رسول الله ﷺ في الكتابة فأذن له)[1] .

وقد أمر بالكتابة كما روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ خطب فقال أبو شاه : اكتبوا لي يا رسول الله ـ يقصد أن تكتب له الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ ـ فقال رسول الله ﷺ : (اكتبوا لأبي شاه)[2] .

وفي أمر النبي ﷺ أمته بالتبليغ عنه إباحة لكتابته وتقييده لأن النسيان من طبع أكثر البشر ، ومن اعتمد على حفظه لا يؤمن عليه الغلط ، فترك التقييد يؤدي إلى سقوط أكثر الحديث ، وتعذر التبليغ وحُرمت آخر الأمة من معظم العلم ، فلذلك دون الحديث تدويناً كاملاً : بعضه في زمانه ﷺ وبعضه بعد ذلك ، وقد ذكر ذلك في كتب علوم الحديث .

هذا وقد أجمع جيل الصحابة في حياة النبي ﷺ وبعدها على التزام العمل بالسنة ، واطاعته فيما قضى به ، وأفتى فيه ، والسؤال عنها حتى يعرف إذا كان للرسول سنة في الأمر المشكل ، والمسألة النازلة .

وقد حمل العلماء النهي عن كتابة الحديث إذا كان ذلك في صحيفة واحدة مع القرآن الكريم حتى لا يختلط مع كتاب الله تعالى ؛

---

(١) ـ أحمد في المسند ٢/٤٠٣ . وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (إسناده حسن) ٢٠٧/١ .

(٢) ـ رواه البخاري في الصحيح : كتاب العلم باب كتابة العلم ، وكتاب اللقطة باب كيف تعرف لقطة أهل مكة ، وكتاب الديات باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين . في حديث طويل .

وبخاصة في أول عهد الإسلام حيث كان الصحابة - رضي الله عنهم - لم يأخذوا على عبارات القرآن وألفاظه .

ثم لو فرضا أن حديث النهي عن كتابة الحديث غير منسوخ بالأحاديث الواردة بالأمر بها ، أو السماح بها ، أو غير مخصصة بعدم الاختلاط بالقرآن ، فليس فيه المنع من الأخذ بالسنة ، وإنما غاية ما فيه المنع من كتابة السنة في حياة رسول الله ﷺ فتبقى الآيات القرآنية الموجبة لطاعة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - واتباع ما جاء به ، والاقرار بحكمه قائمة لا شبهة فيها .

إفادة السنة للظن الموجب للعمل :

ومن جملة ما يتذرع هؤلاء القوم الرافضون للسنة ، الذين يقبلون القرآن - بزعمهم - أن القرآن الكريم متواتر من لدن رسول الله ﷺ الى هذا الوقت لم يدخله شيء غريب عنه ، ولم ينقص منه شيء ، فهو يفيد القطع التام بأن كل آية من آياته هي من عند الله تعالى دون ريب أو شك ، وأما السنة النبوية فليس فيها من المتواتر الا القليل النادر ، وأما باقيها فهو منقول بطرق آحادية ولا نقلهم أكثر من الظن ، فكيف نأخذ بالمظنون ؟ .

وللاجابة على ذلك أضرب مثلاً ، وذلك الطعام الذي نطعمه، فإن أي إنسان يقوم بتحضير الطعام يكون أمامه احتمال احتراق الطعام مهما كان القائم بهذا العمل يقظاً ، ويزيد هذا الاحتمال قوة حتى يكاد يقرب من اليقين كلما كان القائم بطهي الطعام كثير الغفلة كالأطفال ، أو صغار السن ، أو المعتوهين ، ويضعف هذا الاحتمال حتى يكاد ينعدم تماماً ، ولا يخطر على البال كلما كان القائم به يقظاً منتبهاً ماهراً في صنعته ، عارفاً لما يحتاجه من الوقت ، ورغم هذا الاحتمال الوارد في طهي الطعام من الاحتراق أو عدم إجادة الطهي ، لم يمتنع أحد

عن القيام بذلك لأن الاحتمال العقلي لا يمنع من العمل ، والعقل لا يتوقف عن الخوض في الاحتمالات الكثيرة التي قد لا تحدث كلها ، أو لا يحدث جلها .

وكذلك الأمر في الحديث النبوي فإن احتمال الخطأ فيه يزيد زيادة تجعل هذا الاحتمال أقرب الى اليقين بوجود انسان يتصف بالكذب ، ولهذا يرد علماء الحديث كل حديث جاء في اسناده رجل هو على هذه الصفة بالرغم من الاحتمال العقلي في صدق الكذوب ، ويخف احتمال الخطأ عن الأول اذا كان في الرواة انسان كثير الوهم ، عظيم الغفلة ، يأخذ عمن ليس بأهل ، كل هذه صفات تبقي احتمال الخطأ قائماً ، وقريب الوقوع ، ولا تلغيه ، ولهذا يقف علماء الحديث من رواية هؤلاء وأمثالهم موقف الحَذر المتنبه ، ويخف الاحتمال أكثر اذا كان في الرواة من هو قليل الوهم ، خفيف الخطأ ، فيه شيء من الغفلة ، فيقبل حديث هؤلاء مع شيء من الحيطة ، ويكاد ينعدم هذا الاحتمال عندما يكون الرجل الراوي للحديث ثقةً في دينه ، صادقاً في قوله ، ضابطاً لعلمه الذي يحمله ، شديد الانتباه ، عظيم الادراك لطرق الحديث ورجاله ، متثبتاً في نقله ، ولهذا يجعل العلماء الاحاديث التي ترد من طريق أمثال هذا الرجل في الدرجة العالية من الصحة ، واذا جاء الحديث من طريق يتصف رجاله بهذه الصفات ، فلا شك أن من واجب الأمة أن تقوم بتطبيق ما أرشدها إليه هذا الحديث لأنه أفاد بما يقرب من اليقين أن هذا الحديث صحيح الى رسول الله ﷺ ونسبته اليه سليمة لا ريب فيها .

وقد يقول قائل : إن ما قلته قد يصدق في الأمور الدنيوية التي لا يحتاج فيها الانسان إلى أكثر من الظن الغالب ، وليس محتاجاً فيها إلى اليقين ليقوم بالعمل، أما اذا كان الأمر في الدين ، وفي ايجاب

أمر على المسلمين فلا يجوز لنا أن نأخذ الا بأمر مستيقن ، ولا يصح أن نأخذ بالظن .

فيجاب عن ذلك بأن هذا القول من جملة الظن في الدين الذي لا دليل عليه ، فما هو الدليل على أن الله تعالى منعنا بالعمل بالظن ، وأمرنا دائماً وأبداً باليقين ؟ بل نقول : إن الله تعالى لم يطالبنا الا بالظن الذي يغلب صدقه ، أما الوصول الى اليقين القاطع الذي ليس معه أي احتمال ، فهذا لا يطلب من الانسان المسلم ، إذ ليس من مقدوره أن يصل الى اليقين ، ولهذا عندما تكلم العلماء عن القرآن الكريم قالوا : إن بعضه قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وبعضه قطعي الثبوت ظني الدلالة ، وقد قال تعالى في محكم كتابة :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(١) .

فالراسخون في العلم هم الذين يعودون بالمتشابه الى المحكم، ويفهمون بذلك الجميع ، ولمن يطلع على علم أصول الفقه يتبين الفروق بين العموم والخصوص ، ودلالات الألفاظ على المعاني ، ودرجة تلك الدلالة مما جرى فيه اختلاف العلماء في كل زمان وفهمهم من كتاب الله تعالى مما يدل على أننا لسنا متعبدين باليقين ، ولهذا أمرنا الله ـ جلت حكمته ـ في كتابه العزيز أن نتبين القول اذا جاءنا عن طريق انسان فاسق ، خارج عن الدين ، غير متبع لأحكام الشريعة فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ

(١) ـ سورة آل عمران : آية ٧ .

بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيْبُوا قَوماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِيْنَ﴾[١] . فيأمر الله تعالى المؤمنين بهذه الآية بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له ، والمفهوم من هذه الآية الكريمة أن حامل الخبر إن كان صادقاً في نفسه ، ثقة في دينه مرضياً في خلقه فلا يحتاج خبره إلى تبين وتثبت ، لأن خبره يفيد الظن الراجح الموجب للعمل بما أخبر ، ويدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيْدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[٢]. فقد أوجب الله تعالى علينا قبول قول شاهدين والعمل بمقتضى شهادتهما في اثبات الحقوق ، والدماء ، ولا شك أن خبر الشاهدين هو خبر آحاد ومع ذلك فخبرهما معتبر شرعاً .

مما مر يتبين أن كون السنة مفيدة للظن لا يقتضي ردها ، وعدم الاذعان لأمرها ؛ بل ذلك يقتضي اتباع ما جاء فيها ، إضافة الى ذلك فإن علماء الحديث قد اعتنوا في أمرها ، وتتبعوا طرقها حتى أصبحت السنة الصحيحة قريبة من اليقين في ثبوتها ، تورث الانسان حين اطلاعه على شروط الأئمة في قبول الحديث ثقة بها ، وعلماً بأن هذه السنة محفوظة بحفظ الله تبارك وتعالىٰ لها ، لأن بها بيان كتاب الله عز وجل

ومن جملة ما يحتجون به على رفض السنة ، زعمهم أن في السنة أحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ يخالف بعضها بعضاً ، ويضربون على ذلك مثلاً ما ورد عن النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قوله : (لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد)[٣] .

---

(١) ـ سورة الحجرات : آية ٦ .
(٢) ـ سورة البقرة : آية ٢٨٢ .
(٣) ـ أخرجه البخاري .

فقالوا : إن أول هذا الحديث يتنافى مع آخره ، فكيف يقرر الحديث في أوله نفي العدوى : ثم يطلب في آخره أن يفر المرء من المريض المصاب بمرض الجذام . وهذا الذي قالوه يعرف عند علماء الحديث باسم : «مختلف الحديث» وهو أن يأتي حديثان متضادان في المعنى من حيث الظاهر ، ولكنهما في الحقيقة ليس بينهما أي تعارض أو أي تباين، وذلك لأنهما صادران عن رسول الله ﷺ . وقد كان ابن خزيمة الذي كان يقال له إمام الأئمة يقول : لا أعرف حديثين متضادين ، فمن كان عنده فليأتيني به لأؤلف بينهما[1] ، وقد وضع العلماء قواعد للترجيح بين هذه الأحاديث أو للجمع بينها ، وبيان عدم هذا التعارض ، يتبين منها أن العالم الغواص على دقائق العلوم ، المطلع على روايات الحديث ، المطلع على الرواة ومكانتهم هو الذي لا يشكل عليه أمثال هذه الأحاديث التي أوردها هؤلاء ، واعتبروها مشكلة لا حل لها ؛ أما الذين يأخذون من العلم اسمه ، ولا يجهدون أنفسهم في البحث والاطلاع فهم وحدهم الذين يجدون اختلافاً في الحديث يشكل على أفهامهم ، وأما الحديث الذي أوردوهمثالاً على ذاك ، فإنه لم يكن مشكلاً عليهم ، وذلك لأن الحديث يسير في سياق واحد ومعناه على النهي أي لا يعدي بعضكم بعضاً ، ويؤيده الحديث الآخر : (لا يورد ممرض على مصح)[2] . ولا تعتقدوا بالطيرة ولا تتطيروا ولا تتشاءموا فما علاقة الطير بالعمل سواء طار شمالاً أم طار يميناً ، ثم ينتهي الحديث مقرراً بأن على المسلم أن يبتعد عن مواطن المرض ، وعدم الاقتراب من أسبابه ، ولهذا لما أقبل المسلمون على بلد فيها الطاعون عقد المسلمون مجلس الشورى ، فكان الرأي أن لا يدخلوا تلك البلد ،

---

(١) ـ تدريب الراوي ٢/١٩٦ .
(٢) ـ رواه البخاري وينظر فتح الباري ففي الحديث وجهات نظر أخرى .

فقال أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لو غيرك قالها ، نفر من قدر الله الى قدر الله . .

وهكذا يسير الحديث دون أن يكون تعارض بين أوله وآخره منسجماً مع بقية الأدلة الواردة في السنة الشريفة .

ومما ذكروه في ذلك أيضاً : قول رسول الله ﷺ (اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)(١). قالوا وهو متعارض مع ما ثبت في السنة من دخول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الجنة قالوا : فهذان الخبران متعارضان ، لأن علي بن أبي طالب قد قاتل المسلمين في غزوة صفين فهو من أهل النار بزعمهم .

وقد يكون هذا الحديث قد مر بكم كثيرا ، ولكن لم يخطر في بالكم كما خطر ببال هؤلاء الذين يريدون أن يثيروا الرماد في وجه الشمس المشرقة الوضاء ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ويذهب جهدهم هباء منثوراً لا أثر له في عالم الاسلام والمسلمين ، لأن من المعلوم لكل مسلم أن حديث (اذا التقى المسلمان) حديث معناه : اذا كان لقاؤهما حمية جاهلية ، أو عصبية قومية ، أو حماقة شخصية يريد كل واحد منهما أن يقتل أخاه لهذا السبب فهما في النار ، أما اذا بويع لخليفة من المسلمين ثم قام من ينازعه على الخلافة فمن الواجب في حقه أن يقاتل ذلك الانسان الذي يريد أن يفرق جماعة المسلمين وبنشر الفوضى في صفوفهم .

وقد بين الله تعالى ذلك الحكم في كتابه العزيز في قوله سبحانه ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيْءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ

(١) ـ متفق عليه .

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِيْنَ﴾[(١)] .

ومما احتج به الذين رفضوا السنة كذلك أن السنة تخالف العقل والعلم في بعض النصوص التي وردت في كتب السنة ، ومن ذلك : قول رسول الله ﷺ : (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء)[(٢)] . وزعموا أن هذا كلام لا حقيقة له في العلم ، وتعجبوا كيف يكون في أحد جناحي الذباب داء وفي الآخرة دواء ؟ !

إن هذا الموضوع يفتح باباً آخر هو باب موقف العقل من النصوص الشرعية الواردة في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله ﷺ ، وقد كان للمعتزلة في هذا سهم واسع حيث قالوا بأن الحديث يجب أن يعرض على العقل الصريح ، فما وافق العقل قبل ، وما رفضه رد .

ولكن ماذا يراد من العقل في مثل هذه الأمور ؟ لئن كان المراد بدهيات الأمور التي تدرك لكل انسان فهذا أمر قد نص عليه علماء الحديث وبينوا أن من علامات الحديث الموضوع مخالفته لبداهة العقول وللمقطوع به من الدين أو التاريخ أو الطب .

ولئن كان المراد غير هذا مما يستغربه العقل ، فإن استغراب العقل شيئاً ما أمر نسبي يتبع الثقافة والبيئة وغير ذلك مما لا يضبطه ضابط ولا يحدده مقياس .

ومن المقرر في الاسلام أنه ليس فيه ما يرفضه العقل ويحكم باستحالته ولكن فيه أمور قد يستغربها العقل ولا يستطيع تصورها ،

---

(١)- سورة الحجرات : آية ٩.

(٢)- رواه البخاري .

وشأن المسلم اذا سمع خبرا ما أن يرفض ما يرفضه العقل ، ويتأنى فيما يستغربه حتى يتيقن من صدقه أو كذبه .

وطريق التيقن (أو العلم) في الإسلام أحد أمور ثلاثة :

١ ـ إما الخبر الصادق الذي يتيقن السامع من صدق مخبره كإخبار الله في كتبه واخبار الأنبياء .
٢ ـ وإما التجربة والمشاهدة بعد التأكد من سلامة التجربة فيما يقع تحت التجربة والاختبار .
٣ ـ واما حكم العقل فيما ليس فيه خبر صحيح ولا تجربة مشاهدة .

ومن اعجاز القرآن أنه وضع هذه القواعد الثلاثة لتحقق العلم أو اليقين في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1] .

هـذا ومن الجدير بالذكر هنا أن العلم يتطور ويتغير فإن كثيراً مما كان غامضاً على العقول أصبح مفهوماً واضحاً ؛ بل إن كثيراً مما كان يعتبر حقيقة من الحقائق أصبح خرافة من الخرافات ، وما كان مستحيلاً بالأمس أصبح اليوم واقعاً .

وكلما ازداد العقل علماً بما حوله ازداد علماً بسعة جهله في أمور تنكشف له في عالم الانسان نفسه ، وفي الكون الواسع من حوله ، فما يزال أمام الإنسان مجالات علمية واسعة لا يدرك منها شيئاً أو يدرك منها أشياء وتخفى عليه منها أشياء .

ولهذا كله : لا يجوز للانسان أن يجعل العقل البشري وما وصل إليه من علم وإدراك هو الحاكم في نصوص الشريعة إذا صح الطريق إلى صاحبها عليه الصلاة والسلام .

---

(١) ـ سورة الإسراء : آية ٣٦ .

«والذين ينادون بتحكيم العقل في صحة الحديث أو كذبه لا نراهم يفرقون بين المستحيل وبين (المستغرب) فيبادرون إلى تكذيب كل ما يبدو غريباً في عقولهم ، وهذا تهور طائش ناتج من اغترارهم بعقولهم من جهة ، ومن اغترارهم بسلطان العقل ، ومدى صحة حكمه فيما لا يقع تحت سلطانه من جهة أخرى»[١] .

وقد وقع في مثل هذا كثير من علماء المسلمين إبان النهضة الأوربية الحديثة فحاولوا بكل جهدهم أن يبينوا أن الإسلام يخضع للعقل بكل نصوصه ، فخرجوا عن النصوص وروحها ، وجاؤوا بكلام لا يرضاه الاسلام ، فالعقل له حدود يجب أن يقف عندها ولا يتعداها .

ونعود الى الحديث الذي أوردوه مثالاً على ذلك وهو حديث الذباب ، فما وجه الغرابة فيه ؟ أليس الله قادراً على أن يجعل في أحد جناحي الذباب جراثيم مؤثرة وأن يجعل بالجناح الآخر مضادات لهذه الجراثيم ؟ ! إن الله على كل شيء قدير ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وقد أجريت تجارب في القاهرة لإثبات هذا الأمر وأثبتت التجارب صحة ذلك وخسىء المبطلون .

ومن الأحاديث التي قالوا عنها أنها متعارضة مع العقل والعلم ، قوله ﷺ : «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فاغسلوه سبعا إحداهن بالتراب» [٢] .

فقالوا : إن غسل الإناء سبع مرات بالماء جدير أن ينظفه أما أن يغسل بالتراب فكيف ينظف التراب ؟ إن شأن التراب أن يزيد الاتساخ ، لا أن يجلب التنظيف ؟

---

(١) ـ انظر فيما سبق السنة ومكانتها في التشريع ٣٤ ـ ٣٦ بتصرف يسير واختصار .

(٢) ـ أخرجه مسلم والترمذي بلفظ قريب .

فيقال في ذلك ما قيل في الحديث السابق بأن هذا من الأمور الغيبية التي وردت عن رسول الله ﷺ على العلم أن يكشف عنها ، والعلم متطور لا يقف عند حد ، فاذا ثبت ذلك من طريق السند ، وحكم العلماء بصحته فهو صحيح لا شك فيه ويبقى المطلوب من أهل الطب والمشتغلين بالجراثيم أن يتحققوا من ذلك ، ولهذا وجدنا أن الباحثين في ذلك قد تبينوا صحة ما ورد في حديث رسول الله ﷺ وقالوا بأن جراثيم الكلب لايمكن أن تزول الا بالتراب مهما غسلت بغيره وقد ثبت ذلك في تجارب أجريت في إسبانيا .

«إن رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو أقساماً ليس هو حتى اليوم إلا قضية هوى ، قضية قصرت عن أن تجعل من نفسها بحثاً علمياً خالصاً من الأهواء ، وإن السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن إعادته إلى مصدره ، إن السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح كما يظهر في سنة النبي ﷺ في نظام واحد ، ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم ، وقصور بيئتهم فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة لأنهم اذا فعلوا ذلك كان بامكانهم بعدئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكير السطحي حسب ميول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو ، ولكن الاسلام الذي يعتبر نظاماً خلقياً وعملياً ، ونظاماً شخصياً واجتماعياً ، ينتهي بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار .

وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدينة الغربية في البلاد الاسلامية نجد سبباً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه بعض المسلمين من هذه القضية ، ذلك هو قولهم : أنه من المستحيل

أن نعيش على سنة النبي ﷺ وأن نتبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد .

ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يُكْبر كل شيء غربي ، وأن يتعبد لكل مدنية أجنبية لأنها أجنبية . وهذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي ﷺ وجعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا[١] .

وبذلك نعلم أن هؤلاء النفر من الناس الذين يرفضون السنة النبوية ، ولا يريدون تحكيمها فيما بينهم إنما يريدون بذلك رفض الاسلام كله بالبعد عن أحكامه وتشريعاته ، وعدم القيام بها كما أمر الاسلام وسن رسول الله ﷺ واتبعه على ذلك الصحابة الكرام ، والأمة الإسلامية من بعدهم عبر القرون الممتدة في تاريخ الأمة الاسلامية ، وذلك لأن السنّة هي المثال الحي لشريعة الله في الأرض ، وخطر أولئك عظيم على الأجيال الاسلامية ، والشبان الناشئين مما يوجب على الأمة الاسلامية أن تقف أمام الاتجاه القائم الآن في رفض السنة لبيان زيفه وضلاله ، وأن تبذل الجهد في إعلام الأمة بالمكانة الحقيقة للسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام .

وأختم هذه المحاضرة بقول الأستاذ/ محمد أسد حيث قال: «لقد كانتُ السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنك اذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق»[٢] .

فترك السنة هو انحلال الإسلام .

---

(١) ـ انظر الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) ـ الإسلام على مفترق الطرق ٨٧ .

نسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يكون هواه تبعاً لما جاء به المصطفى ﷺ ، وأن يكون الرسول قدوتنا في حياتنا كلها الشخصية والاجتماعية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل . !!!

د . صالح أحمد رضا.

الفهرس